النهضات القومية العامة*

فى أوربا وفى الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

تمهيد:

دعتنى لجنة الثقافة بدار المعلمين لالقاء محاضرات عامة ، فترددت فى اختيار موضوع هذه المحاضرات ، ذلك أنى رجل أشتغل بالقانون ، والناس لا يرحبون كثيراً لا بالقانون ولا برجال القانون ، وكيف يستسيغ الناس القانون ، وهو جاف لا طلاوة فيه ، أو ترحب برجال القانون ، وهم رجال صناعتهم الخوض فى المنازعات ، فان لم توجد خلقوها خلقا ؟ هذه هى سمعة رجال القانون عند الجمهور ، ولا أحاول أن أدافع عنهم ، وان كنت منهم ، فانى أخشى أن ينازعونى حق النيابة عنهم والتحدث باسمهم . لذلك آثرت أن أتجرد الليلة عن هذه الصفة ، وأن أتقدم اليكم بموضوع لا شأن له بالقانون ، واخترت أن يكون موضوعى عن النهضات القومية فى أوربا وفى الشرق

ولست أزعم أنى توفرت على دراسة موضوعى دراسة دقيقة ، فان الدراسة الحق لهذا الموضوع تقتضى الخوض فى فلسفة التاريخ والاجتماع ، مما أعفيكم منه ، كما أعفيكم من سماع الأحاديث القانونية الجافة . لذلك ستروننى هذه الليلة أمس موضوعى مساً خفيفاً ، فى رفق وهوادة ، محاذرا أن أثقل عليكم أو أن أثقل على نفسى ، راجياً العذر إذا قصرت فى التعمق ، فان الغرض الأول الذى توخيته من هذه المحاضرات ، ليس هو الغرض العلمى . بل هى الرغبة فى استخلاص بعض الدروس للشعوب الشرقية فى نهضاتها الحديثة ، فى ضوء التجارب التى مرت بها الأمم الغربية

وما دمت سأتكلم فى النهضات القومية ، وما دامت النهضة تقوم على روابط ، فانى أبدأ بتحديد معنى الرابطة ، تمهيداً للكلام فى النهضات القومية

الرابطة وحدة تجمع طائفة من الناس ، وتقرب ما بينهم وتميزهم من الطوائف الأخرى ، فالرابطة إذن لها وجهان : وجه إيجابى ، هو ذلك التقريب ، وكلما توثقت أواصره كان فى ذلك الخير كله . ووجه سلبى ، هو ذلك التنافر والتباعد ما بين طائفة وأخرى ، وكلما أغرق فيه كان تعصباً ، والتعصب كريه مذموم

ولا بد من وجود الروابط فى الجميعات البشرية ، وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً . نعم لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولكانت هناك رابطة واحدة تربط الناس جميعاً ، هى رابطة الانسانية ، ولكن ذلك المثل العالى لم يتحقق حتى الآن وقد لا يتحقق إلى مدة طويلة ، بل قد لا يتحقق أبداً ، لذلك يجب أن نواجه الأمر الواقع ، وأن ننظر على أى أساس يتمى الناس أمماً وشعوباً

ولنبدأ باستعراض التاريخ استعراضاً سريعاً ، لنستخلص منه الروابط المتعاقبة التى ربطت الجميعات البشرية فى أوربا منذ العصور الوسطى إلى الآن . إن المستعرض لتاريخ الغرب يستطيع أن يقرر أن الجميعات البشرية قد تقاربت وتباعدت على أسس اختلفت باختلاف مراحل التاريخ . ففى العصور الوسطى كان الأساس هو الدين ، إذ تجمعت الشعوب الغربية وقامت وحدتها على الدين المسيحى ، ثم أخذت رابطة الدين تنحل شيئاً فشيئاً ، وأخذت تحل محلها رابطة الوطن ، وما زالت أواصر الوطنية تتماسك ، ثم تتوثق ، حتى قوى التعصب لها وحتى قامت الحروب ما بين الشعوب المختلفة فى الوطن والتى اتحدت فى الجنس ، وبقى الأمر كذلك حتى مستهل القرن التاسع عشر ، إذ قويت رابطة الوطن بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، ثم أخذت رابطة أخرى فى الظهور ، رابطة تقوم لا على فكرة الوطن ولا على فكرة الجنس ، بل على فكرة الكفاح ما بين الطبقات ، ووجوب سيادة طبقة العمال ، وبهذه الرابطة نادى الاشتراكيون ، وأخذ أمر الاشتراكية يقوى شيئاً فشيئاً ، ومذاهبها تتنوع وتتشعب ، حتى الحرب الكبرى إذ استفحل شأن الاشتراكية بارتماء الروسيا فى أحضان البلشفية

* المحاضرة الاولى من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ السنهورى فى مدينة بغداد فى بهو أمانة العاصمة فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣٦

على أن رابطة الوطن ، وقد وقفت إلى جانبها رابطة أخرى مقاربة لها هي رابطة الجنس ، لم يفتر نشاطها ، بل نزلت إلى ميدان النضال . وها نحن اليوم نشهد صراعاً عنيفاً ما بين رابطتي الوطن والجنس من جهة ، ورابطة الطبقات من جهة أخرى

هذا بيان اجمالي عن الروابط التي تعاقبت على أوربا منذ العصور الوسطى إلى اليوم : من رابطة الدين ، إلى رابطة الوطن ، إلى رابطة الجنس ، إلى رابطة الطبقات ، ونحن نفصل الآن ما أجملناه

١ — *العصور الوسطى : رابطة الدين*

قلت إن الشعوب الأوربية كانت تجمعها في العصور الوسطى جامعة الدين ، وكانت الدولة لا تقوم على القومية أو الوطنية في تلك العصور ، بل كانت الدولة والقومية منفصلتين إحداهما عن الأخرى منذ العصور القديمة ، فقد كانت اليونان قومية واحدة تتنازعها دول متعددة ، وكانت الرومان قوميات متعددة تندمج في دولة واحدة . ولما جاءت العصور الوسطى تجمعت الشعوب الأوربية في ظل الدين المسيحي ، يقود زمامها سلطتان : سلطة روحية هي سلطة البابا ، وسلطة زمنية هي سلطة الأمبراطور . واستندت الكنيسة إلى السلطة الزمنية دهوراً طوالا ، فان المسيحية كان قد اشتد كاهلها في ظل الامبراطورية الرومانية ، إذ بعد أن ناوأتها هذه الامبراطورية زمناً طويلا ، واضطهدت معتنقيها ، وسامتهم الخسف والعذاب ، تغلبت قوة الايمان ، وانتصرت المسيحية ، واتخذتها الأمبراطورية الشرقية ديناً رسمياً للدولة

ولما سقطت الأمبراطورية الرومانية شعرت الكنيسة بحاجتها إلى سلطة زمنية تستند اليها ، و في المثل الأعلى للشعوب الغربية هو أن تتجمع في ظل الكنيسة . وقد تحققت هذه الأمنية إلى حد كبير في آخر القرن الثامن ، وقام بتحقيقها شارلمان ، فقد وحد غرب أوربا بعد أن أخضعها لسلطانه ، وتوجه البابا ليو الثالث في سنة ٨٠٠ في كنيسة القديس بطرس ، امبراطورا على العالم المسيحي ، وخليفة لقياصرة من الرومان ، وأعاد الأمبراطور أوتو الجرماني وحدة العالم المسيحي مرة أخرى في القرن العاشر ، أما الكنيسة نفسها فقد كان ظلها ينبسط على العالم المسيحي ، يحقق وحدة هذا العالم ، وقد كان لها أعوان منبثون في كل قطر وبلد ، يؤيدون سلطانها ، وينفذون ارادتها ، وسلاح الكنيسة إذ ذاك هو الغفران والحرمان ، تغفر لمن تشاء ، وتحرم من تشاء ، فكلمتها نافذة مطاعة ، والعالم المسيحي ينظر اليها رمزاً لوحدته

وبقيت الرابطة الدينية قوية متينة دهوراً طوالا ، ثم أخذت في الانحلال ، ويرجع السبب في انحلالها إلى الحروب الطويلة التي نشبت ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وإلى اتصال العالم المسيحي بالعالم الاسلامي بعد انقضاء الحروب الصليبية ، مما خفف من حدة التعصب الديني ، وإلى الاصلاح الديني الذي كان من شأنه أن يشق العالم المسيحي إلى كثلكة وبروتستانتية ، وأخيراً ، وبنوع خاص إلى عصر النهضة في العلوم والفلسفة ، تلك النهضة التي افتتحت بها العصور الحديثة في أوربا ، فبدد نور العلم ما كان قد تلبد من غياهب التعصب ، وانقشعت ظلمات الجهالة ، وميز الناس بين الروابط المدنية والروابط الدينية ، فحكموا في الأولى عقولهم ، وفي الأخرى ضمائرهم ، وأعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

٢ — *العصور الحديثة : رابطة الوطن ورابطة الجنس*

وننتقل الآن من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية ، من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وقد بدأت هذه العصور في أوربا منذ القرن السادس عشر ، وبدأت معها رابطة الوطن تحل محل رابطة الدين ، وقد كان يمنع من توثق رابطة الوطن في الماضي أمران : (الأمر الأول) رابطة الدين وقد رأينا كيف تفككت هذه الرابطة . (الأمر الثاني) شيوع النظام الاقطاعي في الشعوب الأوروبية ، وقد كان من شأن هذا النظام أن يفكك سلطان الدولة ، وأن يوزعه بين النبلاء ، فلم تكن تقوم للدولة ولا للقومية قائمة في ظل هذا النظام . ثم أخذ يزول شيئاً فشيئاً ، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم التجارة والصناعة ؛ مما جعل طبقة التجار والصناع وهي الطبقة الوسطى ذات شأن كبير . فأضعفت من سلطان الأرستقراطية والنبلاء ، وحلت البرجوازية التجارية والصناعية محل الأرستقراطية النبيلة ، واستندت اليها

السلطة الم ، واستعانت بها فى توطيد سلطانها وهدم سا ره

وعرس تقدم التجارة والصناعة عند الأمم الغربية حب الاستعمار سعياً وراء أسواق جديدة للتجارة ، أو جرياً وراء الحصول على المواد الأولى للصناعة ، وقويت نزعة الاستعمار عند الدول الغربية الكبرى ، وتنافست ، فقامت الحروب بينها ، وزادت كل أمة شعوراً بقوميتها ، وهكذا نرى أن الاستعمار كان من شأنه أن يقوى الوطنية ، وأن يذكى نار التعصب للقومية

وقد بلغت رابطة الوطنية أوجها من القوة بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، وبقيت قوية عنيفة طوال القرن التاسع عشر ، رغماً عن حركة الرجعية التى رفع لواءها مؤتمر فينا . وأخذت القوميات التى لم تستكمل استقلالها تكافح فى سبيل هذا الاستقلال ، وخرجت منتصرة من هذا الكفاح . فاستقلت اليونان عن الدولة العثمانية ، والبلجيك عن هولندا ، وإيطاليا عن النمسا ، وأخفقت بولونيا والمجر ، ولم يقدر لهما النجاح إلا بعد الحرب الكبرى ، واستقلت بعض ولايات البلقان ، وتكونت الأمبراطورية الألمانية ، بعد أن اصطدمت القومية الألمانية بالقومية الفرنسية ، وجر هذا الاصطدام إلى حروب دامية وأهوال

على أن تقدم الصناعة بنوع خاص ، لاسيما فى القرن التاسع عشر ، كان له أثران خطيران غير تقوية روح الوطنية والنزعة الاستعمارية . (الأثر الأول) تقويته روح الديمقراطية ، التى بدأ غرسها الثورة الانجليزية ، وأنبتتها الثورتان الأمريكية والفرنسية . وللديمقراطية حديث طويل ، يصح أن يكون موضوعاً مستقلاً لسلسلة أخرى من المحاضرات . (الأثر الثانى) غرسه روح الاشتراكية ، وهنا نرى عجباً . فان الصناعة ، التى قوت رابطة الوطنية ، أوجدت إلى جانبها رابطة أخرى مناقضة لها كل المناقضة ، هى رابطة الطبقات . إذ قويت طبقة العمال بفضل تقدم الصناعة الكبير ، وأخذت تشعر بقوتها ، وتجمعت كتلاً كتلاً ، وسرى روح التفاهم ما بين العمال من جميع القوميات ، وصاح فيهم ماركس صيحته المشهورة : « أيها العمال من جميع أنحاء العالم ، هلموا إلى رفع لواء الاتحاد » ، وعارضت روح الطبقات روح الوطنية ، وبدأت الاشتراكية تدخل فى دور عملى ، ولم يعد بد للأمم الأوربية من أن تواجه هذه الحركة الجديد

وقبل أن ننتقل من الوطنية إلى الاشتراكية ، نقف قليلا لنعرف معنى الوطنية التى أكثرنا من الاشارة اليها ، فقد تحاشينا تعريفها حتى الآن ، إذ ليس من السهل تحديد هذا المعنى الدقيق . فالوطنية جامعة تقوم على روابط طبيعية وأخرى صناعية ، وأول الروابط الطبيعية هو وحدة الجنس والدم ، وبلى هذا وحدة الأقليم الجغرافى . ثم وحدة اللغة ، ويترتب على هذه الوحدات المختلفة وحدة التاريخ ووحدة التقاليد ، هذه هى الروابط الطبيعية التى تجمع ما بين أبناء شعب واحد ، وتجعل من هذا الشعب وطناً يشعر بذاته . فاذا اقترنت بهذه الروابط الطبيعية رابطة أخرى صناعية ، هى وحدة النظام السياسى ، فقد استكملت الوطنية ذاتيتها ، واستجمعت مقوماتها ومشخصاتها ، وإذا انضم إلى كل هذه الروابط وحدة الدين ، فقد بلغت الوطنية الأوج من عنفوانها وقوتها . على أن اجتماع كل هذه الروابط ليس ضرورياً لتكوين الوطن ، فوجود بعضها يكفى . والمهم أن يتوحد المكان الجغرافى والنظام السياسى ، ويتبع ذلك وحدة التاريخ ووحدة التقاليد . فقد تضم رقعة جغرافية قوماً مختلفى الجنس ، ولكن يتحد تاريخهم وتقاليدهم ، فاذا انضموا إلى نظام سياسى واحد كونوا وطناً ، وقد يتفرق أبناء الجنس الواحد بين أوطان متعددة ، كل وطن له مقوماته الذاتية من لغة وتاريخ وتقاليد ، وقد يتجمع القوم متحدين جنساً مختلفين ديناً ، ولا يمنع اختلاف الدين من تكون الوطن ، ومن هنا نرى أن رابطة الوطن لا تتفق تماماً مع رابطة الجنس والدم . فالرابطة الأولى فيها شىء من العوامل الصناعية تعززها وتقويها ، والرابطة الثانية ، رابطة الدم ، تقوم على الطبيعة ذاتها ، ولا تعارض بين رابطة الوطن ورابطة الجنس والدم ، حتى لو ضم الوطن الواحد أجناساً مختلفة . إلا إذا أسىء فهم الوطنية ، وأخذت لا على أنها صلة حب وتآلف بين هذه الأجناس ، بل صلة كراهية ومقت لكل قومية أخرى

(يتبع) عبد الرزاق السنهوري